العلمانية والأصولية في فكر د. مراد وهبة

تعقيب وملاحظات

بقلم الأب/ جوزيف سكاتولين(*)

مقدمة

يعد الدكتور مراد وهبة من أبرز مفكرين العرب ومن أشد أنصار فكر العلمانية في العالم العربي. وله في ذلك سجل حافل من المؤلفات والمقالات والمحاضرات. ولا شك أنه يستحق التقدير الذي يحاط به رغم المعارضة العنيفة المعلنة عليه من طرف الذين يُدينون فكره بحجة أنه يخالف لبعض الأراء الدينية التقليدية. إلا أن مراد وهبة في الواقع يطرق قضية عصرية من الدرجة الأولى، هي قضية لا يجوز لأحد تناجبها أو تجاهلها بأي عذر من الاعذار، إذْ إنها قضية تطاردنا الآن بلا مفر وبلا هوادة في كل ما يتعلق بالمجتمع البشري المعاصر، وخاصة في مجال العلاقات بين المجتمع والسياسة والدين. ومن المعروف أن هذه قضايا تخص العالم العربي وأنظمته الاجتماعية والسياسية والدينية منذ وقت، وخاصة في وقتنا الحاضر مع التغيُّر العميق الذي يخترقه من جراء حركات «الربيع العربي»، أي اليقظة الجديدة التي ينتشر فيه بعد فترة من الركود تحت الحكومات الاستبدادية الماضية. ولا أحد ينكر أن لفكر مراد وهبة قدرًا كبيرًا من الأهمية في مواجهة هذه القضايا، فلا يمكن تجاهله.

لذلك قبلت بكل سرور الدعوة لأكتب شيئًا عنه مع عرض عامٍّ للخطوط الرئيسية لفكره ومع تعليق على بعض القضايا المهة الذي يعالجها هذا المفكر العربي العظيم. لذلك قمت أولاً بعرض وجيز لبعض أفكاره الرئيسية، ثم أتبعتها ببعض الملاحظات من جانبي عليها لتوضيحها وأيضًا لتكملتها في بعض الجوانب. والغرض الأساسي من هذ العمل إبراز بعض القضايا العصرية التي تواجهنا نحن جميعًا، مع الحث لبذل أكثر ما يمكن من الجهد لإيجاد لها حلاً مفيدًا لكل المستمدين من أفكار هذا المفكر العربي العظيم إرشادًا و إلهامًا.

(*) أستاذ التصوف الإسلامي بالمعهد البابوي للدراسات العربية والإسلامية بروما.

١. مراد وهبة: حياته وأعماله

ولد مراد وهبة جِبْران في ١٣ أكتوبر ١٩٢٦ في مدينة آسيوط بصعيد مصر. ودرس الفلسفة في جامعتي القاهرة وعين شمس، ونال الدكتوراة من جامعة الأسكندرية. ثم صار بروفيسور وأستاذ الفلسفة في جامعة عين شمس وعضوًا في مجموعة من الأكاديميات والمنظمات الدولية المرموقة منها «الأكاديمية الإنسانية والاتحاد الدولي للجمعيات الفلسفية»، إضافة إلى «المجلس الأعلى للثقافة المصري». وهو مؤسس ورئيس «الجمعية الدولية لابن رشد والتنوير» منذ سنة ١٩٩٤م. واسمه مذكور في موسوعة الشخصيات العالمية حيث يُعتبر من بين الـ٥٠٠ شخصية الأكثر شهرة في العالم.

يُعرف الدكتور مراد وهبة بأنه من أشد الدعاة لضرورة إحياء فلسفة ابن ر شد بوصفها فلسفةً عقلانية. فقد كان ابن رشد يدعو إلى إعمال العقل في فهم النص الديني وفي الحوار الإيجابي بين الناس حتى مع المتقدمين على الإسلام. ويرى مراد وهبة أن هذه الروح من التوسع والانفتاح يجب أن تسود الحوار بين الغرب والشرق في عصرنا، لأن مثل هذا الحوار يعتبر أساس السلام بين الشعوب والثقافات على مستوى كوكب الأرض كله. ومن المعروف أيضًا أن فكر ابن رشد كان من أهم العوامل التي أسهمت من خلال فلسفة «الرشدية اللاتينية» في القرون الثالث عشر فالرابع عشر في تأسيس التيارات العقلانية الأوروبية وما تولد عنها من حركات إصلاحية دينية في القرن السادس عشر، ثم من حركة التنوير في القرن السابع فالثامن عشر. لذلك يدعو مراد وهبة إلى تأسيس «رشدية مصرية معاصرة»، مع الرجاء أن تكون هذه عاملاً فعالاً في تجديد الفكر الإسلامي ونقله من ظلام العقلية الأصولية المتطرفة المهيمنة في أنحاء عديدة من العالم العربي إلى نور العقلانية المتفتحة السمحة. ويرى مراد وهبة أن هذا شرط أساسي في الحوار الحقيقي بين الغرب والشرق.

ولمراد وهبة إنتاج ثقافي مرموق، نذكر من مؤلفاته: المذهب في فلسفة برجسون (١٩٦٠)، محاورات فلسفية في موسكو (١٩٧٧)، الأصولية والعلمانية (١٩٩٥) فلسفة الإبداع (١٩٩٦)، مستقبل الأخلاق (١٩٩٧)، جرثومة التخلف (١٩٩٨)، مُلاَّك الحقيقة المطلقة (١٩٩٨)، قصة الفلسفة (٢٠١١).

وله أيضًا عدد وفير من المقالات التي نشرها في مجلات مختلفة ومنها ما نشر في الجريدة

المصرية المصري اليوم بين عامي ٢٠١٢-٢٠١٣، حيث لخص بنفسه بعضًا من أفكاره الرئيسية حول قضايا مختلفة من أمثال الديموقراطية، والعلمانية، ونظرية العقد الاجتماعي، والليبرالية، والأصولية الدينية، والتعصب، غيرها من أهم مواضيع فكره. وكانت هي عونًا مفيدًا لنا لعرض فكره.

٢. بعض من الخطوط العامة لفكر مراد وهبة

٢-١. الديمقراطية وعناصرها الأربعة:

لا شك أن مراد وهبة من أشد أنصار فكرة الديمقراطية. وهو يرى أن الديمقراطية تتأسس على ما يسميه بـ«**رباعية الديمقراطية**»، أي على أربعة عناصر يجب تبنى عليها، و إلا فلا، وهي: **العلمانية، ونظرية العقد الاجتماعي، التنوير، الليبرالية.**[١]

العلمانية.[٢] فيرى مراد وهبة أن **العلمانية هي نقطة البداية فى تأسيس الديمقراطية.** لقد نشأت فكرة العلمانية خلال القرن السادس عشر فى أوروبا، عندما **أثبت العالِم الفلكي البولندى كوبرنيكس** (Copernicus) **(ت١٥٤٣) أن الأرض ليست مركز الكون، إنما هي تدور حول الشمس مع غيرها م الكواكب**، من ثم فهي متحركة ومتغيرة. و إثر تلك الرؤية الجديدة اكتشف الإنسان أن **معارفه نسبية وليست مطلقة.** ومن هنا جاء تعريف مراد وهبة للعلمانية بأنها «**التفكير فى النسبى بما هو نسبى وليس بما هو مطلق**». إذن، ينفي الفكر العلماني مركزية الإنسانية في الكون، وبالتالي تصير المعرفة البشرية نسبية وليس مطلقة، كما كان يُتصوَّر في

---

(١) «لزوم العلمانية للعقلانية»، في المصري اليوم، ١٩ سبتمبر ٢٠١٣.

(٢) هناك جدال طويل حول مصدر لفظ «علمانية» في اللغة العربية: هل هو من لفظ «عَالَم» فيُنطق عَلْمانية بمعنى كل ما يتعلق بأمور العالَم، أم هو من لفظ «عِلْم» فيُنطق عِلْمانية بمعنى كل ما يتعلق بالعِلْم ويكون نتيجة له. ولقد وجدتُ ما قد يكون أقدم ذكر لهذا اللفظ في اللغة العربية هو نص للصوفي العظيم عبد الجبار النفري (ت٣٥٤هـ/ ٩٦٥م أو ٣٦٦هـ/ ٩٧٦-٩٧٧م)، حيث يذكر لفظ «علْمانية» مشتق من لفظ «علم»، فيقول في هذا الصدد: «يا عبدُ، أنا ربُّكَ الذي تعلمُ، وأنتَ عبدي الذي تعلَمُ، فأَسْجِدْ عِلْمانيَّتَكَ بِكَ لِعِلْمانيَّتِكَ بي»، (مخاطبة ٤ رقم ١٨). ومعنى لفظ عِلْمانيَّة في هذا السياق عند النفري: «موقف العِلم»، وهو العلم الديني المحصول عليه باجتهاد الإنسان. فهذا العلم البشري يجب أن يصير ساجدًا لعلم الرب لأن علم الرب يفوق علم العبد. فهذا الفكر يثبت عكس ما يقول موراد وهبة الذي يريد أن يكون العلم البشري مستقلاً عن العلم الإلهي. إذن، يبدو أن هذا النص لم يكن مصدرًا لمصطلح عَلْمانية في الفكر الإسلامي حسب مفهومه الحديث، الذي يقوم على الفصل بين المقدَّس (sacred) والعالمي (wordly, profane).

ماضي الزمان، **فعلى الإنسان أن يعترف بأنه لا يمتلك الحقيقة المطلقة**. هكذا، من خلال الفكر العلماني يتحرر الإنسان من وَهْمه الطويل أي أنه بإمكانه اقتناص الحقيقة المطلقة.

العقد الاجتماعي. من فكرة العلمانية **يأتي العنصر الثاني** من تلك الرباعية وهو نظرية التي نشأت في القرن السابع عشر، خاصة مع **الفلسفة الاجتماعية التي أعلنها الفيلسوف الفرنسي جان جاك روسو** (Jean Jacques Rousseau) (ت١٧٧٨). فتقول هذه الفلسفة الاجتماعية الجديدة بإن المجتمع البشري لم يُنزَّلْ من السماء بأوامر إلهية، إنما هو تأسس ويتطور من طرف المجتمع البشري باتفاق جماعة من الناس على التنازل عن بعض حقوقهم للحاكم مقابل أن يكون هذا ضامناً لأمنهم وسلامتهم. إذن، **فالمجتمع البشري عمل بشري نشأ من خلال العقد الاجتماعي، وليس عملاً إلهيًّا**. وبالتالي **ليست هناك سلطة سياسيَّة مقدسة**، لها حق إلهي على الكل. إن هذه النظرية الاجتماعية الحديثة تقر أن **أفراد المجتمع البشري كلهم سواسية في الحقوق والواجبات**، ومن ثم يرفض مراد وهبة أي فكرة عن سلطة دينية وادِّعائها بأنها هي المؤسِسة للمجتمع.

التنوير. وأما العنصر الثالث في «رباعية الديمقراطية» هذه، هو التنوير الذي **يعني الإقرار بأن العقل البشري له سلطان مطلق، فليس هناك سلطان فوقه**، أي ليس من حق أي سلطان آخر أيًّا كان أن يزعم بأن **له سلطة فوق العقل البشري**. والتنوير يلزم العلمانية، فهو يعني أن العقل سلطان نفسه، فليس من حق أي سلطان آخر أيًّا كان الزعم بأنه يكون بديلاً عن العقل وله التحكم عليه.

الليبرالية. أما **الليبرالية فتقع في نهاية المطاف لهذه الرباعية إذْ إنها تُعلي من سلطان الفرد فوق المجتمع**، ويثبت الفكر الليبرالي أن حقوق الإنسان الفردي لا تخضع لأي سلطان آخر. وتأسيسًا على ذلك كله يقول مراد وهبة: «يمكن القول إنه لا ديمقراطية بلا علمانية، ولا ليبرالية بلا علمانية». فيختم كلامه بإثبات: «لأنكم ليبراليون فأنتم علمانيون». (١)

هذه هي **العناصر الأربعة** التي بنيت عليها، في رأي مراد وهبة، **فكرة الديموقراطية**. فطالما يردد مراد وهبة هذه المنظومة الفكرية في مؤلفاته وخاصة في كتابه المشهور: «الأصولية والعلمانية» (القاهرة، ١٩٩٥).

---

(١) «لزوم العلمانية للعقلانية»، المرجع السابق.

ويرى مراد وهبة أن **فكرة العلمانية مرتبطة بفكرة العقلانية** التي صارت الكلمة المفضلة عند بعض الناس تفاديًا من تهمة الكفر التي تلصق بفكرة «العلمانية» عند الكثير من الناس. **إن العقلانية تعني أن المعرفة البشرية تأتي في حدود العقل البشري**، كما قال الفيلسوف الألماني الشهير إمانويل كانط (Immanuel Kant) (ت١٨٠٤). فعلى هذا الأساس يجب، حسب رأي مراد وهبة، **رفض فكرة امتلاك الحقيقة المطلقة**، أو كما يقول فكرة «**مُلاك الحقيقة المطلقة**»، **إذْ إن هؤلاء الملاك سيتحولون بالضرورة إلى إرهابيين**. وهذا لأن **الحقيقة المطلقة لا بد أن تكون واحدة، فلا تقبل التعدد**، إذْ إن المطلق واحد فلا يقبل وجود غيره من المطلقات. وإذا تعددت المطلقات، لا بد أن ينشأ صراع بينها بلا مفر، **فالبقاء لا يكون إلا للأصلح، أي للأقوى منها**. هكذا ترجع البشرية إلى قانون الغابة حيث الأقوى هو المسيطر على الكل. فإلى هذا الحد الخطير من التدهور الحضاري يقود، في رأي مراد وهبة، فكرة ملاك الحقيقة المطلقة، كما يثبته الصراع العنيف من جهة التيارات الأصولية المتطرفة المعاصرة.

وبعد هذا العرض العام لفكر مراد وهبة، سنعرض بعض التفاصيل منه.

٢-٢. حول التنوير والأصولية

لكي نفهم فكرة مراد وهبة علينا أن ندرك في بعض مفاهيمه، من أهمها فكرة التنوير والأصولية، إذْ إنه يرى أن هناك فرقًا أساسيًّا بل قل تناقضًا جذريًّا بين هاتين الفكرتين: التنوير والأصولية.

٢-٢-١: التنوير:

إن التنوير في مفوم مراد وهبة يعني إعلاء شأن العقل فوق الكل، وبالتالي إيقاظ الجماهير من سُباتها الدوجماطيقي، أو قل من نومها العميق بسبب تعاطيها بمخدراً اسمه «الحقيقة المطلقة»، على حد تعبيره، إذْ إنه من الوهم أن نتصور أنه بإمكاننا امتلاك الحقيقة المطلقة. فالتنوير يقول بأن كل شيء خاضع للنقد أمام محكمة العقل.

وينظر مراد وهبة إلى ابن رشد كأعلى مثال للتنوير في الفكر الإسلامي، إلا أنه هُمِّش فيه، وما زال حتى الآن هامشيًّا في العالم الإسلامي. والمفارقة الكبرى هنا أن ابن رشد، المهمَّش في الفكر الإسلامي، صار **من مؤسسي حركة التنوير في أوروبا** من خلال التيار الذي نشأ فيها في القرن الثالث عشر المسمى بـ«**الرشدية اللاتينية**». ولهذا السبب يدعو مراد وهبة كل

القوى الفكرية المقاومة لحركة الأصولية الدينية إلى تأسيس «رشدية مصرية» في زماننا لتكون المقدمة الأولى لنهضة تنويرية جديدة معاصرة داخل الفكر الإسلامي.[١]

فيرى مراد وهبة أن فكر ابن رشد يجب اعتباره المرجعية الأساسية لإقامة «جمهورية علمانية». والواقع أن المبدأ الأساسي لفكر ابن رشد هو «إعمال العقل في النص الديني، والذي يُسميه هو «التأويل»، والذي عرَّفه ابن رشد بأنه «إخراج دلالة اللفظ من الدلالة الحقيقية (أي الحسية) إلى الدلالة المجازية». فمع المجاز تتعدد التأويلات، ومع تعدد التأويلات ليس ثمة إجماع، ومع خرق الإجماع في التأويل فلا يبقى هناك تكفير، وهو عامل معروف وخطير للغاية في تاريخ الفكر الإسلامي، إذْ إنه كان سببًا عرقلته عبر القرون. ومن هنا تقوم حرية الاعتقاد، ومع حرية الاعتقاد ينفتح الإنسان على مختلف النظريات فيتأثر بها ويؤثر فيها. والجدير بالذكر أن ابن رشد يقول أن هذه المبادئ العقلية مشتركة بين البشر، مؤمنين كانوا أم لا، حتى مع القدماء الذين سبقونا في البحث العلمي، فيقول: «يجب علينا أن نستعين بما قاله مَنْ تقدمنا، سواء كان ذلك الغير مشاركاً لنا أو غير مشارك في الملة، فإن آلة التفكير (أي المنطق) ليس يُعتبر في صحتها كونها آلة المشارك لنا في الملة (الدين) أو غير مشارك».[٢]

ويشرح مراد وهبة فكره قائلاً: «من البين أن هذه النصوص وما يماثلها تفيد بأن الحقيقة التي ينطق بها الإنسان ليست مطلقة، ولن تكون كذلك، إذ إنها محكوم عليها بأن تكون نسبية لأن ناطقها والمفكر فيها هو عقل الإنسان. وإذا كانت العلمانية هي التفكير في النسبي بما هو نسبي وليس بما هو مطلق، فابن رشد، بحسب أقواله السابقة، علماني بالضرورة. وإذا كانت الأصولية هي التفكير في النسبي بما هو مطلق وليس بما هو نسبي فابن تيمية أصولي بلا شك. هكذا يكون ابن رشد على نقيض ابن تيمية ولا وسط. وإذا كان ابن تيمية هو أساس فكر الإخوان المسلمين وغيرهم من أصحاب الفكر السلفي، فهؤلاء أصوليون بالضرورة. وإذا استولى هؤلاء على مؤسسات الدولة، وهم بالفعل في الطريق إلى هذا الاستيلاء، فجمهورية مصر بالضرورة لن تكون إلا أصولية شئنا أم لم نشأ، ومع الأصولية يمتنع التطور، ومع امتناع التطور يتم الانزلاق نحو التخلف بلا قيود، وعندئذ تكون الكارثة.»[٣]

---

(١) «العلمانية قادمة»، المصري اليوم، ٣٠ نوفمبر ٢٠١٢.

(٢) «جمهورية علمانية بمرجعية ابن رشد»، المصرى اليوم، ٢١ أبريل ٢٠١٢.

(٣) نفس المرجع.

٢-٢-٢. الأصولية الدينية:

في مقابل فكرة التنوير تأتي فكرة الأصولية الدينية. وهذه، كما يقول مراد وهبة، نتيجة **الفكر الدوجماطيقي**، الذي هو الأساس الأول والدافع القوي لحركة «**الأصولية الدينية**». وتأتي الدوجماطيقية من فكرة امتلاك الحقيقة المطلقة، وهذه فكرة خطيرة للغاية إذْ إنها ظلت ولا تزال **مما يدفع** الجماهير - إذا أُمرت به - **إلى تكفير** مَنْ ينكرها، بل وحتى إلى قتله بطريقة عمياء دون أن تفهم شيئاً لهذا الذى تكفِّره أو تقتله. **الأصولية الدينية** إذن، **هي المصدر الأساسي لحركات الإرهاب العديدة** المنتشرة على مدار كوكب الأرض. من أمثال هذه الأصولية الدينية نجد «حركة الإخوان المسلمين» التي على المستوى السياسي تسمى في مصر بـ«حزب الحرية والعدالة»، وكذلك الحركة الوهابية وما يماثلهما من التيارات السلفية، مما يُسمى الآن بالإسلام السياسي.

«**إن الأصولية أياً كانت سمتها الدينية تعني الالتزام بالتفسير الحرفي للنص الديني** ومقاومة أي نظرية علمية تناقض هذا التفسير الحرفي، ومن ثم يمتنع عن إعمال العقل فى النص الديني. ولكل أصولية مؤسس. وفى حالة **الأصولية الإسلامية** فإن **مؤسسها هو الفقيه «ابن تيمية»**.[١]

إذن، يَعتبر مراد وهبة العالِم الفقيه **ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ/ ١٣٢٨م) المرجعية الأولى للفكر الديني الأصولي** في الإسلام، فمنه استمدت أفكارها كل من:

- الحركة الوهابية التي قامت فى منتصف القرن الثامن عشر **فى المملكة العربية السعودية، أي سنة ١٧٤٠**، عند ما تم عهد التعاون بين **محمد بن عبد الوهاب** (ت١٧٩١) مؤسس الحركة الوهابية، **والأمير محمد بن سعود** (ت١٧٦٥)، مؤسس الدولة السعودية الأولى.
- **حركة الإخوان المسلمين** التي أسسها **حسن البنا (ت١٩٤٩) في مصر سنة ١٩٢٨**، كحركة دينية سياسية لنشر الدعوة الإسلامية.
- وكذلك كان **ابن تيمية** ممن سجَّع فى تكفير ابن رشد ونفيه من وطنه مع حرق كتبه.

فيقرر ابن تيمية في كتابه درء التعارض بين العقل والنقل «**أن الشرع يقوم على السمع**، أي على ما سمعناه من الرسول ﷺ. ولهذا فإن ما هو ثابت هو ثابت بالسمع سواء علمنا بالعقل

(١) «جمهورية أصولية بمرجعية ابن تيمية»!، المصرى اليوم، ٦ أبريل ٢٠١٢.

أم بغير العقل ثبوته. ومعنى ذلك أن ثبوت ما أُخبرنا به ليس موقوفًا على عقولنا لأن مهمة عقولنا أن تعلم بهذا الذى سمعته دون أن تؤوِّله».[١]

إذن، فابن تيمية يرفض ما قاله ابن رشد عن تأويل النص بالعقل، ويُقِرُّ التفسير الحرفي له، وهذا لأن في رأيه كلَّ آيات القرآن واضحة فى معناها، وليس هناك خفاء، فلا ثمة مبرر للتأويل. **إذن، فطاعة العقل للسمع** لازمة. وعلى هذا الأساس يتأسس المجتمع على السمع والطاعة، والمجتمع الذى يتأسس على هذا النحو يسميه مراد وهبة بـ«**مجتمع القطيع**». ويتصف هذا المجتمع بصفة الأصولية، فيكون مجتمعًا أصوليًّا بلا شك.

ويلاحظ مراد وهبة أن فكر ابن تيمية صار المُؤثر الأعظم فى العالم الإسلامى من القرن الثالث عشر إلى القرن الواحد والعشرين الذي نحن فيه. لذلك يمكن القول بأن العالم **الإسلامى بسبب فكر ابن تيمية لا يزال يحيا فى القرن الثالث عشر متقوقعًا فيه دون أن يتجاوزه إلى القرن الواحد والعشرين.**

٢-٣. التعصب:[٢]

ويرى مراد وهبة أن **التعصب ظاهرة من ظواهر الأصولية**. وأساس التعصب هو **الفكرة بأن هناك علاقات خاصة بين الأله وشعب ما**، فصار هذا الشعب في هذه النظرية شعبًا مختارًا. ويحكم هذه العلاقة الخاصة بين الشعب وإلهه نشأ التوهم عند أمثال فرعون **بأنه مالك للحقيقة المطلقة**. فبما أن **الحقيقة المطلقة واحدة** فليس من حق أحد معارضتها أو الإتيان بغيرها. ومن توهم ذلك فمصيره العذاب وبئس المصير. وقد أُطلق لفظ «**الأصوليون**» على ملاك الحقيقة المطلقة إذْ إنهم يقولون **بأنهم ملاك هذه الحقيقة المطلقة دون سواهم.**

ويرى مراد وهبة أن التعصب: «... **كان سائدا منذ الإنسان البدائى**، وحتى الآن. فالإنسان البدائى هو الذى **ابتكر فكرة «المحرَّم»** والمحرم يعنى أن ثمة أشخاصًا أو أشياء **قد عُزلت عن العالم العام فأصبحت مقدَّسة**، أى غير قابلة للنقد، وإلا فالتعذيب أو الموت لمن يجرؤ على نقدها».[٣]

---

(١) نفس المرجع.

(٢) «التعصب»، المصرى اليوم، ١٠ أغسطس ٢٠١٢.

(٣) نفس المرجع.

وكل هذا يناقض موقف التنوير الذي يدعو إلى إعلاء سلطان العقل بمعنى أن لا سلطان على العقل إلا العقل نفسه.

٢-٤. العلمانية قادمة:[١]

يقول مراد وهبة بأن **العلمانية** أتت نتيجة نظرية العالم الفلكي **كوبرنيكوس** الذي أثبت أن الأرض هي التي تدور حول الشمس، فمن ثم **أصبحت المعرفة البشرية متغيرة نسبية.**

ويُضيف مراد وهبة أن العلمانية قادمة لا بد، مهما اشتدت شوكة الأصولية والدوجماطيقية. وهذا لأن الحضارة **الإنسانية في تقدمها ترفض أن تكون محكومة بمعتقد مطلق** أيًّا كان هذا المعتقد. فهذا هو القانون الذى يتحكم على مسار الحضارة الإنسانية وصياغته. وسبب ذلك الرفض أن **الأصولي، في رأي مراد وهبة، أشبه بالسيكوباتي** الذي يقيم علاقاته بالعالم الخارجي على أسس زائفة لأنه يقدِّر ذاته تقديراً زائفاً، ومن ثم يستهويه التلفيق مع التشويه. إذن، **ليس بإمكان السيكوباتي أن يستجيب لدعاوي العالم الخارج استجابة قويمة صحيحة**، فلا بد من أن يقع في أي فخٍّ من أفخاخ الوقائع البشرية. إذن، **فالأصولية الدينية التى تدعو إلى إبطال إعمال العقل يؤدي إلى ظاهرة شبيهة جدًّا بالسيكوباتية**، وتكون نتائجها سلبية مأساوية للغاية، **فلا يمكن أن تدوم على مر التاريخ**. والأمثال في هذا الصدد كثيرة جدًّا على مسرح التاريخ البشري.[٢]

ومن تلك الأمثال نذكر ما حدث في أوروبا خلال القرن العشرين. حيث هيمنت فيها **ثلاثة معتقدات مطلقة: الشيوعية والنازية والفاشية**. فصعدت هذه حتى امتلاك الحكم المطلق، ثم **سقطت، وظلت الحضارة البشرية سائرة مسارها التقدمي المضاد لتلك المطلقات الثلاثة مستندةً إلى التيار العلماني المتحرر من كل أصناف من الأصولية**. وهذا الأمر سيتحقق لا بد مع الأصولية الإخوانية. إنها اعتقاد مطلق يريد فرض نفسه على المسار الحضارى، فسيكون مصيرها مماثلاً لتلك الأيديولجات المطلقة الثلاث. ولهذا يحق القول، رغم كل ما يظهر من مظاهر الأصولية، بأن العلمانية قادمة.

من هذا **العرض السريع** نرى أن المفكر المصري **مراد وهبة يثبت أنه من أشد الأنصار لفكرة الديموقراطية** التي تتأسس على أربعة عناصر هي، حسب قوله: «**العلمانية ونظرية العقد**

(١) «العَلمانية قادمة»، المصرى اليوم، ١٦ نوفمبر ٢٠١٢.

(٢) «سيكوباتى وراء الفيلم المسىء»، المصرى اليوم، ٢١ سبتمبر ٢٠١٢.

الاجتماعى والتنوير والليبرالية». ولا شك أن فكره يأتي بتسلسل منطقي مترابط وشديد حبَك. فهو ينفي كل أنواع من الأصولية الدينية حيثما وُجدت غربًا أو شرقًا، وكذلك يمانع كل ادعاء بامتلاك الحقيقة المطلقة، وما يترتب على ذلك من تعصب وتطرف بل وحتى من الإرهاب، كما شهدنا أكثر من مرة في هذه السنوات الأخيرة. إن مراد وهبة يثبت أنه من المدافعين عن الحرية الفردية وعن سلطة العقل فوق الكل، فهذا في رأيه المعيار الأعلى في كل القضايا الفكرية والاجتماعية. إذن، يضع مراد وهبة نفسه في التيار الديموقراطي الليبيرالي، بلا شك.

إلا أن هناك بعض الملاحظات على نظرياته التي يجب أن نقدمها انتقادًا إيجابيًا له، أي في سبيل للتعمق والتوسع في نظرياته تلك، وأيضًا في سبيل إيضاح ما يبدو لنا مشكلاً منه.

٣- ملاحظات على فكر مراد وهبة

٣-١. العلمانية

لا شك أن العلمانية تقع كفكرة مركزية في النظام الفكري في فلسفة مراد وهبة، فهي أول عنصر في تأسيس الديموقراطية. يقول مراد وهبة إن فكرة العلمانية تأتي نتيجة النظرية الفلكية التي قدمها العالِم الفلكي البولندي كوبرنيكس الذي استطاع إثبات أن الأرض ليست مركزاً للكون، إنما هي تدور حول الشمس مع غيرها من الكواكب. فمن جراء ذلك الكشف الفلكي فقدت الأرض والإنسان فيها المركزية الكونية التي كانت لها في العلوم القديمة، ومن ثم أصبحت دائرة المعارف الإنسانية نسبية غير مطلقة. وينتهي مراد وهبة إلى تعريفه المشهور للعلمانية بأنها: «التفكير فى النسبي بما هو نسبي وليس بما هو مطلق».

ومع تقديرنا لفكر مراد وهبة هذا، إلا أننا نرى أن العلمانية في واقعها التاريخي هي قضية أكثر تعقيداً ولها مصادر أكثر تنوعًا مما يبدو من كلامه.

فمن المعروف أن فكرة العلمانية نشأت في الغرب من جراء الاختلافات العديدة والعنيفة التي جرت بين السلطة الكنسية والسلطات المدنية في العصور الوسطى. فهذا موضوع واسع ومعقد جدًا لا يمكننا هنا إلا أن نشير إلى بعض جوانبه.

لقد تصارع خلال العصور الوسطى كل من البابوات والأباطرة للسيطرة على أمور المجتمع المسيحي الغربي مما كان سببًا لكثير من المواجهات والصدامات العنيفة بل وحتى

لحروب متواصلة بين أحزاب كليهما. وفي نهاية العصور الوسطى مع بروز جوٍّ ثقافيٍّ جديد فيما بين القرن الثالث عشر والرابع عشر كان يبشر بنشأة النهضة الأوروبية، ظهر عدد من المفكرين الذين صاروا يدعون إلى الفصل بين السلطتين، الزمنية والروحية، فلكل منهما مجال مختلف عن مجال الآخر. ومن أشد مؤيدي هذا الرأي كان المفكر الإيطالي مارسيليوس من بادوا (Marsilio da Padova) (ت١٣٤٢)، وهو من أهم الشخصيات السياسة في القرن الرابع عشر. لقد قدم مارسيليوس من بادوا أطروحته السياسية الشهيرة عنوانها «المدافع عن السلام» (Defensor Pacis)، التي هزت العالم الغربي المسيحي، والتي تُعتبر البداية الحقيقية لفكرة العلمانية في أوروبا. ففي كتابه هذا أبطل مارسيليوس من بادوا كل ادِّعاءات الأيكليروس في السلطة السياسية وأثبت أن فكرة عزل الكنيسة عن كل سلطة زمانية سياسية هي حقًّا القراءة الصحيحة للنصوص الإيجيلية، وخاصة النص الذي يقول فيه السيد المسيح: «أعطوا لقيصر ما لقيصر ولله ما لله» (مرقس ١٢: ١٢-١٧)، كذلك النص الذي يُثبت فيه المسيح: «ليست مملكتي من هذا العالم»، (يوحنا ١٨:٣٦).

ومنطلقًا من أطروحة مارسيليوس من بادوا هذه تعمقت وانتشرت فكرة الفصل بين السطلة الزمنية وتلك الروحية، فأخذت السلطات الزمنية تتوسع في المجال السياسي والاجتماعي والاقتصادي مما جعل الكنيسة تعترف، رضيت أم أبت، بأمر الواقع مع انحصار سلطتها أكثر فأكثر في المجال الروحي فحسب. لذلك سميت هذه الحركة بـ«العلمانية»، لأنها تريد الفصل القاطع بين السلطة الكنسية الروحية والسلطة المدنية الزمنية، أي المهتمة بالأمور الدنيوية التي سميت بالعلمانية (secular). ومعروف أن هذا اللفظ الأخير (secular) مشتق من اللفظ اللاتيني (saeculum) ومعناه «العالم»، أي كل ما يقع خارج الإطار الكنيسي، وعامةً عن كل ما هو ديني مقدس. ومن هنا تُرجم هذا اللفظ إلى العربية بـ «عَلْمَانية»، بمعنى كل ما يتعلق بـ«العَالَم»، أي خارج المجال الديني المقدس.

لقد وصل هذا التيار العلماني إلى ذروته مع الثورة الفرنسية (١٨٧٩) حيث أعلن الشعب الفرنسي الاستقلال الكامل للسلطة المدنية العلمانية عن السلطة الكنسية، بل قد وصل الأمر إلى درجة اضطهاد الكنيسة داخل إطار المجتمع العلماني الثوري الفرنسي. هكذا، دخلت قضية العلمانية، أي فصل السلطة المدنية عن السلطة الدينية في صميم القضايا الأساسية في الثقافة الأوروبية الحديثة، وبالتالي صارت العلمانية شعارًا عامًّا للحداثة. والجدير بالذكر أن هناك

أكثر من صورة لظاهرة العلمانية، **ففرق بين العلمانية الفرنسية المطلقة حتى درجة العلمانية الأصولية وتلك الإنجليزية الأكثر مرونة في الأمر!**

ويبدو لنا غريبًا أن مراد وهبة في كتاباته لا يشير من بعيد أو قريب إلى هذه القضية، أي **الفصل بين السلطتين الروحية والزمنية**، التي كانت، كما يبدو من المصادر التاريخية، هي القضية الأساسية في تأسيس الفكرة العلمانية. **وفي رأينا، لا يمكن اعتبار فكرة كوبرنيكس السبب الأساسي لفكرة العلمانية**، وإن كان له وكذلك لغيره من اكتشافات العلوم الحديثة دور ملحوظ في تأسيس هذه الفكرة.

أما **بما يتعلق بتعريف مراد وهبة للعلمانية**، فلا يخلو هذا أيضًا من لبس، وهو لا يزال مجالاً للمناقشة. فهذا يعني تعريفه العلمانية بأنها «التفكير في النسبي بما هو نسبي وليس بما هو مطلق». **هل يعني هذا مبدأ النسبية المطلقة للفكر البشري**، بمعنى أن ليس هناك مبدأ مطلق سواء على المستوى النظري أوعلى المستوى العملي؟ **فهذا يعني إثبات النسبية المطلقة وفي هذا الإثبات، كما معروف من المجادلات الفلسفية الماضية الطويلة، تناقض واضح.** والواقع أن الإثبات بأن كل شيء نسبي يعني إثبات بأن هناك مبدأ مطلقًا، وهو بالضبط الإثبات بأن كل شيء نسبي. ويبدو لنا أن هذا ما يريده مراد وهبة، إذْ إنه ينتقد انتقادًا شديدًا **الذين يدَّعون بامتلاك الحقيقة المطلقة، لذلك يسميهم** مراد وهبة بـ«**مُلاَّك الحقيقة المطلقة**». فهذه قضيةٌ كبرى، إذْ إن الإثبات بالنسبية المطلقة يجر بالضرورة الإثبات بإنه **ليس هناك مبادئ ثابتة سواء على مستوى المعرفي وعلى مستوى الأخلاقي**. والواقع أنه، **إذا كان كل شيء نسبي، فليس هناك حدود للتصرف البشري: فالخير يساوي الشر والعكس صحيح**. فكيف يمكن على هذا المبدأ النسبي المطلق بناء مجتمع بشري يعيش متماسكًا على مبادئ أخلاقية مشتركة؟ هلا صح عندئذ قول الراوي والمفكر الروسي العظيم فيودور **دوستويفسكي** (Fyodor Dostoevsky) (ت١٨٨٠) **الذي يقول في إحدى رواياته الشهيرة: «إذا كان الله غير موجود، فكل شيء ممكن مباح»** (الإخوة كرامازوف) (The Brothers Karamazov)، **إذْ ليس هنا مبدأ واضح يفرق بين الخير والشر، فالكل نسبي**؛ والويل لمن يحكم على غيره، إذْ إن الكل عالم قائم بذاته ومستقل عن غيره، **فما أراه أنا خيرًا قد يكون شرًّا بالنسبة لغيري**، والعكس صحيح. **فلا يبقى آخر الأمر إلا معيار القوة لإثبات الرأي الخاص، وهذا يرجِّعنا إلى قانون الغابة أي قانون البقاء للأقوى.** وهذا بالضبط هو ضعف

العلمانية المطلقة الحديثة التي لم تستطع أن تؤسس مبادئ أخلاقية ثابته لأن هذا أمر يخالف النسبية المطلقة التي تتأسس عليها.

ونتيجة هذا كله، فإننا نرى الآن أن البشرية المعولمة المعاصرة قد وقعت فيما سماه العالم النفسي الشهير، كارل يونج (Carl Jung) (ت١٩٦١) بـ«البربرية الحديثة». ويبدو أن هذا يكون النهاية المحتومة لمجمع يعتنق النسبية المطلقة. لقد أصبح الإنسان المعولَم في خطر جسيم أن يتحول إلى مجرد آلة للإنتاج والاستهلاك لا غير، لصالح أصحاب المصالح العالمية الكبرى، فالأقوى هو المنتصر، وباقية البشر يُعتبرون عبيدًا له لا غير. فهذا المستقبل حسب الكثير من المفكرين المعاصرين أمر ممكن وغير وهمي، فقد بدأنا نرى في جيلنا الجديد بشائره. عندئذٍ سيتحقق ما أقول منذ وقت: «صنع الإنسان الآلة، ثم صار على صورتها ومثالها». فعن هذا الموضوع تحدثت طويلاً في كتابي تأملات في التصوف والحوار الديني[1]، فليُطلَب هناك.

فهل يمكن فهم فكرة مراد وهبة بطريقة أخرى؟ أي، بمعنى أن هناك حقائق نسبية التي تجري على مستوى الزمان والمكان، وهي حقائق يكتشفها الإنسان من خلال التجربة الخارجية المقيسة حسب المنهج الرياضي التجريبي. وكذلك هناك حقائق أخرى على مستوى التجربة الحياتية الداخلية لكل إنسان. فهذه الأخيرة حقائق تفوق حدود الزمان والمكان، فتكون مطلقة وصالحة في مستواها. هذا موضوع عام، وهو معروض للمناقشة والتعمق منذ زمان طويل، إذْ إنه يمس قضية الفرق بين الثوابت والمتغيرات في الفكر البشري عامة، وفي الفكر الديني والأخلاقي خاصة. ويقع هذا الموضوع بين القضايا الإنسانية الكبرى والمدارس الفكرية الفلسفية، إذْ إن الجدل بين النسبي والمطلق هو من المواضيع العامة والهامة في الفكر البشري منذ بدايته، إذْ إنه طال ما حاول إرساء جذور ثابتة لكيانه فردًا وجماعة. فالإنسان هو الكائن الذي لا يزال من أوله في بحث دائم عن الحقيقة المطلق، إذْ إنه من أساسه الكائن المتسامي نحوالمطلق دائمًا، أو كما يقال أيضًا هو «الجاحُّ الدائم» نحو الحقيقة المطلقة. إلا أن هذا المطلق في الواقع موجود في داخله، حسب قول بلايس بسكال الشهير: «ما كنت لتبحث عني إن لم تكن قد وجدتَني، ولم تكن قد وجدتَني إن لم أكن أنا قد وجدتُك»[2] فالبحث عن

(١) جوزيبي سكاتولين، تأملات في التصوف والحوار الديني - من أجل ثورة روحية متجددة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٣.

(2) Blaise Pascal, Pensées, «Le mystère de Jésus», N° 553 dans l'édition Brunschvig

الحقيقة المطلقة هو في الواقع استجابة لدعوتها لنا بشر لكي ننفتح نحوها. **والحق أن الإنسان لا يملك الحقيقة المطلقة، بل هو في بحث دائم عنها، حتى يتلاقى معها في الآخرة**، حيث «**يكون الله كل شيء في كل شيء**»، حسب عبارة القديس بولس (١ كور ١٥: ٢٨).

وعلى كل حال، فإننا نرى أن فكرة مراد وهبة في هذا الصدد تحتاج إلى المزيد من التوضيح مع ربط فكرة العلمانية بمُجمل أسبابها التاريخية التي لعبت أدوارها المختلفة في تكوينها ونشرها، مع الإشارة إلى بعض الإشكاليات التي تترتب عليها حتميًا.

٢-٢. التنوير والعقد الاجتماعي والليبرالية

إن فكرة العلمانية تأتي في نظر مراد وهبة مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بفكرة التنوير.

ويعني التنوير حسب فكرة الاعتراف بأن **العقل البشري له سلطان مطلق في التحكم على كل الأمور، فليس هناك سلطان فوقه**، أي ليس من حق أي سلطان آخر أيًا كان أن يزعم بأن له سلطة فوق العقل، وبأنه متحكم عليه. إذن، فالعقل في نظر مراد وهبة هو المبدأ الأعلى في كل القضايا الفكرية، وهو الميزان الأساسي في كل الأمور. **هكذا يتأسس مبدأ التنوير وهو أن كل شيء خاضع للحكم أمام محكمة العقل، إذن، فالعقل في فكر مراد وهبة هو المبدأ المطلق بلا شك.** وعلى هذا الأساس يقدِّر مراد وهبة فلسفة **ابن رشد** أعلى تقدير إذْ إنه في رأيه كان **صاحب فكر عقلاني شامل**. فقد تبنى ابن رشد **العقل البشري كالمعيار المطلق** حتى في فهم النصوص الدينية، فهو صاحب **مبدأ إعمال العقل في فهم النصوص الدينية**. ففي هذا الصدد يقول ابن رشد في كتابه فصل المقال بأنه إذا وجد في النصوص الدينية شيئ ما يناقض العقل يجب تأويله حسب ما يثبت العقل، إذْ إنه **في تلك النصوص الدينية يرد الكثير من العبارات التي تحمل معنًى مجازيًا لتقريبها إلى فهم كل الناس حتى غير المثقفين**. لذلك لا بد من تأويل هذا المعنى المجازي إلى المعنى الحقيقي الذي يثبته العقل ويفهمه الجميع. وعلى هذا الاساس يدعو مراد وهبة إلى **تأسيس «رشدية مصرية»** في زماننا لتكون المقدمة الأولى لنهضة تنويرية جديدة معاصرة داخل الفكر الإسلامي. **فمأساة الفكر الإسلامي، في رأي مراد وهبة، تقع في أنه مع رفضه فكر ابن رشد أغلق ذاته في ثقافة القرن حادي عشر بدون تقدم يُلحظ.**

لا شك أن حركة التنوير لعب دورًا مهمًا للغاية في نشأة وتطور فكر العلمانية والديموقراطية في نشأة النهضة الأوروبية. فقد كانت هي التي أدت **إلى تأسيس أفق معرفي جديد تطورت فيه**

العلوم الحديثة في كل مجال. ولذلك يمكننا أن نقبل قول مراد وهبة بأن فكر ابن رشد كان له دور مهم في إطار تحديث الفكر الأوروبي. إلا أننا نرى في هذا الصدد أيضًا نوعًا من التبسيط والتعميم في فكره. فمن تابع الحركة التاريخية الواقعية يرى أن هناك في نشأة الحركة التأنويرية في أوروبا عوامل أخرى أكثر أهمية من مجرد فكر ابن رشد، عوامل لعبت دورًا مهمًا فيها. والواقع أن فكر ابن رشد لم يزل آخر الأمر مرتبطًا بالقضايا التقليدية حول كيفية تفسير وتأويل النصوص الدينية، إسلامية كانت أم مسيحية. أما في نشأة الحركة التنويرية فهناك عوامل أخرى عديدة لها أهمية كبرى في تغيير وتحديث الفكر الأوروبي.

يرى المؤرخون أن العامل الأساسي والأول أهميةً في هذه العملية التجديدية كان الرجوع إلى الحضارة الكلاسيكية اللتينية واليونانية. الحقيقة أن النهضة الأوروبية بدأ في أيطاليا مع نشأة اهتمام جديد بالفكر اليوناني واللاتيني القديم. فعندنا مثلان واضحان في هذا الصدد، هما الشاعر العظيم دانتي أليجياري (Dante Alighieri) (ت١٣٢١) والشاعر المحدِث فرانشيسكو بتراركا (Francesco Petrarca) (ت١٣٧٤). والجدير بالذكر أن الفصل الزمني بينهما ليس كبيرًا إذْ إنه ينحصر في مدة خمسين سنة تقريبًا، كما يتضح من تواريخ وفاة كل منهما. إلا أن الاهتمام والمقاربة بل والتذوق بالحضارة الكلاسيكية كانت شديدة الاختلاف بين الاثنين. كان دانتي بلا شك على معرفة جيدة جدة بالثقافة الكلاسيكية للدرجة أنه لا يمكن فهم نشيده العظيم الكوميديا الإلهية (La Divina Commedia) بدون معرفة عامة بتلك الثقافة الكلاسيكية القديمة. إلا أن دانتي كان ينظر إلى ذلك كله من منظور أفق معرفي خاص بالعصور الوسطى. فكان تلك الثقافة الكلاسيكية القديمة تمثل في نظره عالم الوثنية التي مع عظمتها البارزة لم تصل إلى الحقيقة العالية المتمثلة في الدين المسيحي. لذلك كان دانتي يحكم عليها باستمرار بأنها مرتبطة بالعقلية الوثنية التي تم تجاوزها في المسيح، فلا يُقتدى بها. في حين أن بيتراركا كان ينظر إلى تلك الحضارة الكلاسيكية القديمة وكمالها من ناحة قيمها الإنسانية باعتبارها من أعلى الأمثلة للفضائل البشرية، التي تمثل نموذجًا مثاليًا للكمال الإنساني. نُحس في بيتراركا بحنين حرٍّ وشوقٍ عميق، بل وبتلهف شديد لا ينقطع إلى ذلك العالم القديم وأبطاله المتميزين بكل الفضائل الإنسانية، مع محاولة تحقيق هذا كله في عالمه، عالم القرن الرابع عشر الميلادي. ومن هذا الاهتمام الجديد والنظر المتجدد إلى النماذج الكلاسيكية نشأت وتطورت أول الأمر ما يُعرف بالحركة الإنسانية (humanism) التي كانت تحنُّ نحو ذلك العالم القديم

مع تجديد دراساته وفهمه بل وتذوقه المتجدد. ومروف أن هذه الحركة الإنسانية كانت المقدمة الأولى لحركة نهضة الحضارة الأوروبية الحديثة التي جددت شيئًا فشيئًا مناهج البحث العلمي والذوق الفني مع **الاهتمام بالإصلاح الأمور الاجتماعية والدينية** مما أدى آخر مشواره إلى **الحداثة الأوروبية** التي استمرت حتى يومنا هذا.

ويلاحظ أيضًا أن هذه النظرة الجديدة للحضارة الكلاسيكية أدخلت في الحضارة الأوروبية **فكرة مركزية الإنسان، مقابلاً لمركزية الله** التي كانت السمة الغالبة في ثقافة العصور الوسطى. ويمكن التأكد من ذلك عند مقارنة بين فلسفة الكوميديا الإلهية لدانتي أليجياري التي لم تزل تدور حول فكرة مركزية الله في تحديد المصير البشري، وما عبَّر عنه **بيترارکا في أشعاره حيث يحتل فيها الأنسان ومشاعره المركزية المطلقة**. هذا مما **يناقض في رأينا قول مراد وهبة** بأنه مع الاكتشافات الفلكية الحديثة وخاصة مع النظرية الفلكية التي أتى بها كوبرنيكوس **فقد الإنسان مركزيته ودخل في إطار النسبية المطلقة**. والواقع أننا نرى أن هذه الفكرة الأخيرة، أي **النسبية المطلقة، لم تكن منتشرة في الفترة الأولى لحركة الحداثة** إذْ إن الإنسان آنذك لم يزل يؤمن أيمانًا قويًا **بحقيقة المبادئ العلمية** التي صارت الأسس الثابتة لعلوم الرياضيات وتطبيقها على الطبيعة من خلال التجربة.

ويبدو لنا أن **فكرة النسبية المطلقة ظهرت مع الفترة الأخيرة من حركة الحداثة، التي تسمى بالفترة «الما بعد الحداثة»**، حيث تمرد الإنسان على سيطرة العقل المجرد ومبادئه العقلانية المحضة سيطرة مطلقة على الكل، فأدخل في إطار دائرة المعارف البشرية **أبعادًا أخرى من عالم المشاعر واللاواعي، إلخ**... فهذه كلها أيضًا مصدر للمعرفة إذْ إنها أيضًا جوانب ضرورية حقيقية من **الكيان البشري الذي لا يمكن اختزاله في كونه عقلاً محضًا** فحسب، كما يدعي الفكر العقلاني المطلق. والجدير بالذكر أن هذا الموقف المغاير كان موجودًا في بدء الحركة التحديثية الأوروبية. فقد عبر عن ذلك الموقف المختلف الفيلسوف الفرنسي الشهير بلايس بسكال (Blaise Pascal) (ت١٦٦٢) في عبارته الشهيرة: «**القلب له مفاهيمه** (raisons) **لا يدركها العقل** (la raison)»[1]. فأراد بذلك نقد الموقف العقلاني المتطرف الذي تبناه معاصره الفيلسوف الفرنسي ريني ديكارت (René Descartes) (ت١٦٥٠)، الذي يُعتبر مؤسس مذهب العقلانية الحديثة المطلقة. وإذا كان لفكر ديكارت الهيمنة الأولى في تلك الحكرة التحديثية،

(1) Blaise Pascal, Pensées, SÉRIE II Infini-rien, N° 423 dans l'édition Brunschvig

فإن موقف بسكال استمر فيها أيضًا، ولو في مستوى غير بارز حتى طفا إلى النور في المرحلة اللاحقة من الحداثة، ما يسمى «الما بعد الحداثة».

لذلك، عند كلامنا عن التنوير فعلينا ألا ننسى أن **تلك العقلانية المطلقة قد دخلت في أزمة عميقة في أواخر القرن العشرين وبداية القرن الحادي والعشرين**. والواقع أن التاريخ **شهد في فترة سيطرة تلك العقلانية المطلقة سلسلة مرعبة من الحروب والصدمات** تحت شتى الشعارات التقدمية، وقد وصلت تلك الحروب إلى درجة من الوحشية لم يعرفها البشر من قبل، في تاريخه الطويل. فيكفي أن نذكر **الحرب العالمية الثانية التي تعتبر أوحش مذبحة بشرية حصلت عبر تاريخ البشر أجمع**. والجدير بالذكر أن تلك المذبحة البشرية حصلت في أوروبا في ذروة تطورها علميًّا واجتماعيًّا، مما أدى الكثير من الناس الذين شهدوا تلك الوحشية البشرية إلى **شك عميق في إمكان الإنسان العقلاني المعاصر في إثبات مبادئ أخلاقية ثابتة ومقبولة عند** الكل. ومن ناحية أخرى نشهد **في هذه الفترة الأخيرة هيمنة النزعة العالمية المسماة بـ«العولمة»، التي مغزاها سيطرة الرأسمالية العالمية على مستوى الكوكب الأرضي**. يلاحظ أن الإنسان المعولم يفقد أكثر فأكثر صفته الإنسانية كإنسان مع الخطر الكبير وغير الوهمي أن **يتحول هذا الإنسان «الما بعد الحداثي» أكثر فأكثر إلى روبوت كامل للإنتاج وللاستهلاك لا غير. فبعد ما أنتج واستهلك ما طلب منه أصحاب المصالح التسويقية الكبرى يُرمى به من المسرح البشري في عالم النسيان**، إذ إنه صار غير مفيد في مجتمع أصبحت فيه **القيم التسويقية الآلهة الجديدة التي يُذبح لها ذبائح** كما كان يحدث في الوثنية القديمة. إلا أن هذه **الذبائح الجديدة الآن هي البشر** الذين بعد أن تم استغلالهم حتى آخر نقطة من دمهم يُرمى بهم في عالم النسيان الأبدي. وعلاوة على ذلك، فمع التقدم التكنولوجي الكبير في هذا الزمان المعولم أصبح الإنسان بإمكانه التعامل مع التركيب الكيان البشري ذاته، مع الخطر الجسيم أن الإنسان يمكنه الآن أن يركِّب كيان ذاته حسب أهوائه ونزواته، لدرجة لا نعرف حدودها، قد تصل إلى تصنيع روبوتات بشرية، أو ما يشبه ذلك. هكذا سيتحقق القول الذي أردده منذ وقت: «**صنع الإنسان الآلة، ثم صار على صورتها ومثالها**».

يرى مراد وهبة أنه على نظرية العلمانية والتنوير تتأسس **نظرية العقد الاجتماعي**. ومعنى هذا أن المجتمع البشري لا يتكون بسبب قوة غيبية تأتي من فوق على البشر بواسطة أناس متميزين (الأنبياء). **إنما ينشأ المجتمع البشري من عمل بشري هو العهد الاجتماعي**

حيث يتنازل كل طرف عن بعض حقوقه لكي يتعايش مع الآخر، بمقبال ضمان الأمان من طرف الحاكم. إذن، فليس هناك سلطة سياسية مقدسة تأتي من فوق، بل الكل يتعلق باتفاق بين البشر مع تحديد مدى الحقوق والواجبات لكل شريك في المجتمع البشري. وبالتالي تكون الأنظمة البشرية دائمًا في تطور وإصلاح، إذْ إن المجتمع البشري يتغير بتغير الزمان والمكان والظروف التي تطرأ عليه. فهذا صحيح بلا شك من ناحية دراسة أشكال تطور المجتمع البشري عبر التاريخ. فمن يدرس التاريخ البشري يرى نشأة المجتمعات البشرية وتطورتها بطريقة تدريجية نحو أشكال أكثر نظامًا وتعقيدًا. إلا أن هنا أيضًا توجد خطورة جسيمة، كما أشرنا إليها فيما سلف من كلامنا، وهي أن الإنسان إذا فقد معيارًا أخلاقيًا واضحًا وثابتًا قد يُدخل المجتمع البشري في مجال خطر جدًا، وهو فقد صفته الإنسانية كإنسان. وقد شهد الماضي القريب مثل هذا التطور الخاطئ حتى في البلاد الأكثر تقدمًا علمًا وتكنولوجيا في أوروبا مما أدى إلى أنظمة سياسية غير إنسانية مثل الأنظمة الفاشية والشيوعية. ونرى أن هذا الخطر يتجدد اليوم في مجتمعاتنا المعولمة تحت ضغط التسويقية العالمية التي تجعل من الإنسان آلة منتجة ومستهلكة لا غير. فلا قيمة له كإنسان خارج هذا الإطار التسويقي، فإذا انتهى دوره التسويقي هذا، فيُرمى به إلى عالم النسيان الأبدي.

وكذلك يرى مراد وهبة أن فكرة الليبرالية تأسست هي أيضًا على فكرة العلمانية والتنوير، وهي ترفع مكانة الإنسان الفردي الذي لا يخضع لأي سلطان آخر. فالفرد أساس المجتمع وليس أداة تُستخدم في خدمة المجتمع، إذْ إن الفرد غاية ولا وسيلة، كما قال الفيلسوف التنويري الشهير إمانويل كانط (ت١٨٠٤). فهنا أيضًا قد تمثل هذه الفردية المطلقة خطرًا جسيمًا على البشرية، إذْ إن الإنسان الفرد لا يرى إلا مصالحه الخاصة به وقد يضحّي من أجلها جماهير الناس الآخرين الذين أقل منه قوة وإمكانية. فهذه ظاهرة واضحة في النظام الرأسمالي المعولم، نتيجة الليبرالية المطلقة، الذي يسيطر على مدار الكوكب الأرضي مسببًا فيه الكثير من مظاهر الفقر والبؤس. والواقع أن الإحصاءات الاجتماعية تُثبت أن الفجوة بين الأغنياء والفقراء قد اتسعت في فترة العولمة الأخيرة ضد كل التكهنات المتفائلة السابقة.

ومن تركيب هذه المكونات الأربع، حسب نظرية مراد وهبة، تأتي فكرة الديموقراطية التي تُعتبر من أهم المراحل التي وصل إليه المجتمع البشري في عصرنا الحديث. ولا شك أن في قوله هذا الكثير من صحة. فالمجتمع الديموقراطي يمثل في حد ذاته أحسن نظام بشري للحفاظ

على حقوق كل إنسان وكرامته فردًا وجماعة. إلا أنه لا بد من الإشارة إلى الأخطار العديدة التي قد يتعرض لها هذا النظام، والتي قد تؤدي إلى عكس المرجو منه، وهذا عندما يفقد المجمع القيم الإنسانية الأساسية فيقع في هوة اللامعني. فهذه إشكالية مطروحة بلا عذر الغياب لكلنا ولضمير عصرنا.

أما نقيض الديموقراطية، في رأي مراد وهبة، فهو الأصولية الدينية التي تريد فرض نظام إلهيٍّ على البشر.

٣-٣. الأصولية الدينية

يرى مراد وهبة أن مصدر الأصولية الدينية هو فكرة الدوجماطيقية، التي تثبت أن هناك حقائق مطلقة لا يجوز مناقشتها. فمنها تأتي فكرة امتلاك الحقيقة المطلقة من طرف بعض البشر دون الآخرين. إنها لفكرة خطيرة للغاية إذْ منها تنتُج نتائج سلبية جدًّا على البشر من أمثال تكفير الآخر ورفضه، بل وحتى مطارده و إدانته، وقد يصل ذلك التعصب الأصولي إلى الحكم بالتخلص منه بإعدامه.

ويجب هنا الإشارة إلى أن الأصولية الدينية ظاهرة عامة في كل دين، وهي توجد أيضًا في تيارات غير دينية من مختلف الأيديولوجيات من سياسية وثقافية، إلخ... وقد أشارنا إلى النتائج المأساوية الفظيعة التي ظهرت منها في الماضي القريب، خاصة في الحربين العالميتين اللتين اشتعلتا في أوروبا في القرن الماضي تحت شعارات أيديولوجية مختلفة، والتي ذهب ضحايا لها ملايين فملايين من البشر على درجة من الوحشية التي لم يسبق لها مثيل في تاريخ البشر كله. والجدير بالذكر أن تلك التيارات المتعصبة الوحشية لم تكن من أصل ديني، بل كانت ثمار عدد من الأيديولوجيات التي نشأت وتطورت في ظل العصر الحديث، عصر هيمنة العقل المحض، حسب ما تصوره الناس، مما يطرح أسئلة خطيرة على المذهب العقلاني المطلق الصرف: هل هو فعلاً كذلك؟

يرى مراد وهبة أن ظاهرة الأصولية الدينية تأتي من قراءة حرفية للنصوص الدينية. فهذا واضح بلا شك في الكثير من الحركات الإسلامية وغير الإسلامية المتطرفة التي تأخذ من الرموز الدينية شعارات للتأثير في الجموع المتدينة والسيطرة عليها. والخطورة هناك تقع في أن الدين يُستعمل كأداة لتنفيذ المشاريع السياسية لتلك الحركات، وهذا مما يزيف ويشوه صورة الدين بين الناس. وقد كثرت في أيامنا هذه الحركات الأصولية المتطرفة التي تعمل في العالم كله

بعمليات عنيفة ووحشية تنشر الموت والدمار بلا حدود في كل أنحاء العالم، فتصير ضحاياها الآلاف المؤلفة من البشر.

إلا أننا نرى أن ظاهرة الأصولية عامة، وتلك الدينية خاصة، لها أصول متعددة ومتباينة، فلا يجوز اختزالها في مجرد فكرة القراءة الحرفية للنصوص الدينية. فهناك دوافع أخرى كثيرة من نفسية واجتماعية وثقافية، إلخ... تدفع الناس إلى اتخاذ موقف متعصب تجاه الآخرين. ولا يتسع هنا المجال لمناقشتها بصورة كاملة، إلا أننا نشير فقط إلى بعض سماتها المهمة لتوضيح مضمونها الأساسي.

يجب أن يزاد على العبارة «قراءة حرفية» للنصوص الدينية صفة أخرى هي «تشريعية»، فتصير «قراءة حرفية تشريعية». فالأصولي لا يرى في النص الديني إلا مجموعة من الشرائع من الأوامر والنواهي يجب تنفيذها بأشد حرفيتها، وإلا سينزل على ذلك المذنب غضب الكائن الفوقاني الذي يحكم بأشد جدية على من يرتكب أصغر خطيئة ضد أوامره، فالويل لمن يقع تحت شدة غضبه! إن الدين في النظرية الأصولية ليست تنبيهًا وإخبارًا عن حقائق وقيم روحية متعالية التي تمثل الأسس الضرورية لوجود الكيان البشري على ما هو عليه، فلولاها لن يكون الإنسان إنسانًا. والواقع أن الأصولي يفقد الإحساس الديني الصحيح العميق فيتمسك بحرفية النصوص وظاهرها. هكذا تصير حياته الدينية مجرد ممارسة ظاهرية لتلك الشرائع، ولكن بدون روح الدين العميق، فتصبح تلك الممارسات الدينية قشورًا فارغة، مليئة بالعنف والكراهية. ويبدو ذلك بكل وضوح فيما ترتكب تلك الحركات الدينية الأصولية المتطرفة من جرائم فظيعة لا عدد ولا حصر لها ولوحشيتها. فهنا نلمس مسائل مهمة جدًا تهم كل دين، من مثل: ما هو جوهري وما هو ثانوي في الدين؟ ما هي القيم والأغراض الأساسية العليا فيه، وما هي الأحكام التطبيقية وممارستها الظاهرية؟ فهناك في كل دين فرق دائم بين القيم والأغراض الأساسية العليا والوسائل العملية للوصول إليها. ونعرف كيف هذه الإشكالية صارت موضوعًا عامًا لمجادلات طويلة داخل كل دين، مما أدى إلى مواقف مختلفة بين من يقف عند حرفية النصوص ومن ينفذ إلى معانيها العميقة. الكل يشرب من مشربه، فالإصولي يشرب من جفاف الحرف، والروحاني يشرب من عمق الروح وحقائقه العليا.

وفوق ذلك، بسبب هذه العقلية الضيقة الأفق، تنمو في الأصولي النزعة الاختيارية (election)، أي الوعي بأن له موقفًا خاصًا في الدين. وبما أنه يعتبر نفسه صاحب الإدراك

الصحيح للوحي الإلهي فله مكانة خاصة أمام إلهه، فهو المختار المفضل فوق غيره من البشر، وخاصة فوق الذين لا يزالون، حسب رأيه، في ظلام الوثنية على مختلف أشكالها. فالحكم على الوثنية في هذه الرؤية الدينية الضيقة لا يعني إلا الإدانة والإبادة، لا غير. ولا شك أن مثل هذه العقلية في غاية من الخطورة إذْ إن الأصولي يدّعي على أساسها بأن له الحق في تطبيق الحكم الإلهي على البشر. وهذا موقف في غاية الخطأ والخطورة.

ونظن أننا لا نضرب أدراج الرياح إذا قلنا إن هذه العقلية الضيقة المتطرفة صار منتشرة الآن انتشارًا واسعًا في شتى أنحاء العالم، وهي تمثل خطرًا كبيرًا للتعايش السلمي بين البشر في قريتنا العالمية. فهذه العقلية سمَّيتُها في دراساتي بالعقلية «القبلية»، إذْ إن الدين ليس في نظر هؤلاء المتطرفين الأصوليين إلا نظامًا قبليًا في استعداد دائم للدفاع عن نفسه ومحاربة أعدائه.

ومن هذه النظرة الموجَزة يبدو أن الأصولية الدينية لها أبعاد عديدة من النظرية والتاريخية والاجتماعية، إلخ... والواقع أن الأصولية تبدو كونها ظاهرة عامة بين البشر منذ قديم الزمان، فليست هي منحصرة في مجال معين فحسب، أي المجال الديني. وقد يكون روح القبلية التي تربى فيه الإنسان من بدايته هو الأساس الأول لظهور ونمو هذه التيار المنغلق المتعصب الذي يُسمَّى بالأصولية القبلية. يتغذى هذا التيار بعوامل مختلفة من دينية وثقافية وسياسية إلخ... من ضمن هذه العوامل يجب الاعتراف بأن الدين مع الأسف الشديد أصبح عبر التاريخ من أهم العناصر التي نمَّت بين البشر هذه النزعة المتعصبة التي ترسخت في عدد كبير من المجتمعات والثقافات البشرية. فهنا يدخل أيضًا بلا شك عامل القراءة الحرفية للنصوص الدينية، كما يقول مراد وهبة، وهي قراءة بروح قبلية ترفض أي تفسير ملائم لها، وبالتالي تصير هذه القراءة الخاطئة من أهم الأسباب لتقوية التعصب في تلك الحركات الدينية المتطرفة.

وكذلك يجب الأخذ في عين الاعتبار طبيعة كل دين. فهناك أديان تُبرز في المقام الأول الجانب الروحي منها، أي القيم الأساسية من الرحمة والمحبة والعدالة. لذلك تميل تلك الأديان إلى التمسك بهذه القيم أولاً، مع ترك تفاصيل ممارساتها الظاهرية إلى تمييز الناس وحكمتهم. الواقع أننا نجد هذا التيار الروحي موجودًا في العديد من الأديان، حيث نبَّأ أناس حكماء منها إلى أن جوهر الدين ليس الممارسات الظاهرية فحسب، إنما هو التحول الباطني في الإنسان مع التحقق بحقائقه العميقة. فكان هذا دور الأنبياء من بني إسرائيل والحكماء بين الشعوب

الأخرى. وكان المتصوفة يقولون أيضًا: «تخلقوا بتخلق بأخلاق الله»، وهي في المقام الأول الرحمة والمحبة والعدالة.

وهناك أديان تميل أكثر إلى الجانب التشريعي المفصل بكل الممارسات العملية الظاهرة إلى أصغر تفاصيلها. والخطورة هنا أن هذا الاهتمام البالغ بالمظاهر الظاهرية قد يُنسي الأنسان أن ينفذ إلى الحقائق الجوهرية. ففي كل دين يوجد التيار الروحي إلى جانب التيار الظاهري، والجدل بينهما مستمر. فقد عاتب السيد المسيح جماعة الفريسيين من بين اليهود لأنهم مع اهتمامهم البالغ بتفاصيل شريعة موسى وممارستها الظاهرة المدققة أهملوا الجوهري فيها، أي الرحمة والمحبة والعدالة، فكان يقول لهم: «الرحمة أريد لا الذبيحة» (متى ٩: ١٣). وصار هذا أيضًا موضوع مناقشات طويلة عبر التاريخ في كل دين من الأديان العالمية، فلا يتسع المجال لمناقشته هنا.

وأخيرًا، يمكننا أن نقول إنه في كل دين توجد تيارات مختلفة، منها المتعصبة وأخرى متسامحة، تيارات تتمسك بالظاهر وأخرى تهدف إلى الجوهر. فالحكم على الأديان وممارساتها لا يخلو من صعوبة بالغة إذْ إنه يتطلب الكثير من الدراسات المتعمقة والتمييز الحكيم.

خاتمة

قمنا بعرض موجز لفكر الفيلسوف المصري العظيم الدكتور مراد وهبة حول قضايا مهمة من أمثال الديموقراطية والعلمانية والليبرالية والأصولية والتعصب. وكذلك عقبنا عليها ببعض الملاحظات من عندنا التي قد تفيد القارئ في التعمق والتوسع فيها. ورجاءنا أن يكون عملنا هذا مفيدًا لفتح الباب للمزيد من المناقشات والتبادلات حول هذه المواضيع المهمة وجوانبها الكثيرة، إذْ إنها مواضيع تهم الآن كل البشر في عصرنا بلا عذر الغياب. والواقع أننا نعيش فترة خطيرة جدًا من تاريخ إنسانيتها، فلذلك نحتاج بكل القوة الروحية والحكمة الإلهية لمواجهة مخاطراتها الجسيمة.

يبدو لنا أن صلب القضية التي اهتم بها مراد وهبة يلخّص في الجدل الدائم بين النسبي والمطلق في حياة الإنسان. والواقع أن الإنسان هو ذلك الكائن المتميز الغريب الذي يلتقى فيه المطلق والنسبي، فليس هو مطلقًا محضًا ولا نسبيًا محضًا. إن الإنسان يعيش في أبعاد الزمان والمكان، ولكنه لا ينحصر ولا يتوقف فيها. فمنذ بدء وجوده في هذا الكون، كما تثبته التجربة الإنسانية تحت مختلف أشكالها، نجد أن هذا الكائن المتميز الغريب أي الإنسان، يختبر في

كنه ذاته رغبةً وتوجهًا نحو ما وراء أفق الحياة الحالية المقيسة في حدود الزمان والمكان. إذن، فالإنسان لغز كبير، كما قال القديس أوغسطين في عزة أزمته الوجودية: «لقد صرت أنا لنفسي إشكاليةً كبرى» (اعترفات ٤، ٤، ٩). فكم من المفكرين حاولوا أن يجدوا حلاً لهذا اللغز!!! والواقع أن الإنسان هو ذلك الكائن الذي يعيش في بحث دائم ملحٍّ عن المعنى العميق والحقيقي لوجوده، أي عمَّا هو أكثر ضرورة له، فلا غنى له عنه. وكذلك يبدو أن هذا الإنسان لا يستطيع الوصول إلى تلك الغاية الأسمى والضرورية له وبلوغ ذلك الهدف الأعلى الذي لا بد له منه، إلا من خلال هبة مجانية محضة أو نعمة إلهية خالصة من جانب المطلق، إذْ ليس له من السبيل إليه سواه. هذه هي الخبرة الأساسية بالمطلق التي تقع في صميم كل خبرة روحية حقيقية، ومن ثم هي المعاناة الأساسية الراسخة في كل خبرة إنسانية. على هذا الأساس يجب أن نقول إن الإنسان ليس ملأك الحقيقة المطلقة، حسب عبارة مراد وهبة، فيكون في هذه الحالة أقوى من المطلق إذْ إنه يمتلكه، فهذا مستحيل. إنما الإنسان مملوك من طرف المطلق، وهو مجذوب إليه دون هوادة في بحث دائم عنه من خلال النسبي، أي الكائنات المتواجدة في آفاق الزمان والمكان. فالمطلق والنسبي لا يتعارضان بالضرورة. إن المطلق موجود في الإنسان ولكن ليس بكماله، إنما هو موجود كبداية طريق ومسيرة وتوجه نحو تحققه فيه بكماله. ويظهر ذلك جليًّا عندما نتأمل في القيم الروحية الكبرى من أمثال الرحمة والمحبة والعدالة. فليس هناك إنسان يمكنه أن يدعي أنه بلغ الكمال والنهاية في هذه القيم، بل عليه أن يعترف بأنه دائمًا في البداية، إذْ إن الطريق إلى الكمال لا يزال طويلاً وصعبًا. ولذلك قيل إن القديس أو الإنسان الروحي الحقيقي ليس من يقول: «لقد وصلت»، إنما الإنسان الروحي الحقيقي، هو ذلك الإنسان الذي يقول كل يوم: «الآن أبدأ». هذا في رأينا الجدل الحقيقي بين المطلق والنسبي في داخل كل إنسان. أما الكمال المطلق أو المطلق الكامل فسيكون عند النهاية، عندما «يكون الله كل شيء في كل شيء»، حسب عبارة القديس بولس الشهيرة (١ كور ١٥: ٢٨).

ومن ناحية أخرى، فالإنسان لغز كبير أيضًا لأنه لا يعيش على مستوى واحد من كيانه، بل على مستويات متعددة، كلها ضرورية. فليس الإنسان، كما سبق أن قلنا، عقلاً محضًا فحسب، كما أراده بعض العقلانيين، إنما فيه أبعاد أخرى من الحس، والمشاعر، والإدراكات الروحية وحتى عالم اللاوعي. إذن، لا يجوز اختصار الكائن البشري في بعد واحد، ولو كان مهمًّا جدًّا مثل العقل. لا شك أن العقل له دور مهم وضروري في حياة الإنسان، فهو كالميزان الذي يضع

كل شيء في مكانه، وإلا يفقد الإنسان توازنه الأصلي. **فحتى عالم الإيمان لا يمكن أن يستغني عن العقل**، فعلى هذا الأساس أردد من وقت قولاً مكاملاً للقول الروماني الشهير: «**العقل السليم في الجسم السليم**»، **فأنا أقول: «والإيمان السليم في العقل السليم، فإذا فسد العقل فسد الإيمان»**. والسبب لهذا أن المطلق، أي الله، يكلم الكائن البشري الذي في أساسه هو «**كائن عاقل**»، كما قال الفيلسوف اليوناني أرسطو (٣٨٤-٣٢٢ ق.م). إذن، فليس هناك تعارض أساسي بين الوحي الإلهي والعقل البشري، بالعكس هناك توافق عميق بلا شك، إذْ مصدرهما واحد، هو المطلق. ويجب أيضًا أن نتذكر أن العقل البشري يخضع للتطور والتكامل عبر الزمان والكمان. **ومع ذلك، فالعقل ليس كل ما في الإنسان، بل هناك أبعاد أخرى لا بد له منها. ففيه عوالم أخرى مثل أبعاد الحب والجمال والقيم الأخلاقية والذوقية التي لا تُدرك بالعقل المجرد، وإنما تدرك بالشعور الباطني والإدراك الروحي وحتى بالانفعالات الحسية، إلخ...** فإهمال هذا الجانب من حقيقة الإنسان كان الخطأ الكبير الذي ارتكبته الحركة العقلانية الحديثة، مما أدى إلى الكثير من المآساوي البشرية الفظيعة. وهذا موضوع واسع، لا يكمن معالجته هنا، ونتوقف عند هذه الإشارات الموجَزة.

وأخيرًا، وبعد كل ما قيل في هذا الموضوع، فعلينا أن نعترف بأن **فكر الدكتور مراد وهبة لا يزال حافظًا على قدر كبير من الأهمية لمواجهة التحديات العصرية**، وخاصة ظاهرة الأصولية الدينية والتعصب الفكري والتطرف العملي التي تهدد السلام بين البشر، وتنشر الموت والدمار في أنحاء عديدة في قريتنا العالمية. فالمجتمع البشري لا يزال في تغير متواصل وتحول مستمر، فهناك قضايا جديدة تظهر وقضايا قديمة تقع. ونحن في أشد الحاجة الآن إلى إيجاد موقف عقلاني متّزن مستنير، بعيد عن كل تحيز أعمى وانحراف خطير. ولا شك أن ما كتب مراد وهبة يفيدنا كلنا كثيرًا، بل هو ضروري خاصة للذين لا يزالون نيامًا في حلم دوجماتقية سهلة مريحة. فالدكتور مراد وهبة يطالب منا وعيًا متجددًا وتعمقًا مستمرًا في هذه القضية، هي قضية الإيمان والعقل، وكأنه يتحدانا فيها لإيجاد لها حلاً عقلانيًا مقنعًا.

لذلك نرجو أن تكون أيضًا ملاحظاتنا هذه مفيدة للكل مع الحث إلى المزيد من فهم القضايا التي طرحها الدكتور مراد وهبة. فإننا نعتبر هذا التبادل من الأفكار والنظريات شكلاً مهمًا من الحوار بين مختلف الشعوب والحضارات والديانات، حوار لا بد منه في عصرنا، عصر العولمة والتقدم التكنولوجي الفذّ، لبناء مجتمع بشري يسود فيه القيم الإنسانية الأساسية، هي الرحمة والمحبة والعدالة، هي جوهر إنسانيتنا المشتركة، ومصدرها إلهي.